الفصل الخامس عشر

الأولاد الشواذ وعلاجهم

بقلم ف . أ. موص

ليس العقل والجسم وحدتين مستقلتين بل هما فى الحقيقة مظهران لشىء واحد . فإن العمليات الذهنية يرجع أساسها إلى عوامل جثمانية كما هو الحال فى عملية الهضم مثلاً ، إذ نعلم أن كفاية الفرد العقلية تعتمد على تركيبه العضوى وخصوصاً على كفاية أعصابه وغدده وأنظمته الدورية . ولبيان قولنا هذا نمثل بما نشاهده من تغير فى كفاية الرجل العقلية بعد أن نسقيه كأساً من المواد الكحولية إذ نرى أن كفايته العقلية يطرأ عليها تغير نتيجة تأثير سموم الكحول على جهازه العصبى . ولو أخذنا رجلاً آخر ومنعنا عنه الأكسجين بضع دقائق نجده يفقد شعوره ويصير مستوى كفايته العقلية فى حكم العدم لأن نقص الأكسجين يمنع العمليات الكيميائية التى تتوقف عليها الحركة العقلية فى الدماغ . ولو احكمنا إنزال ضربة قوية فى مكان معين من الدماغ نجد أن الإنسان المضروب ينتقل من عالم الحقيقة إلى عالم « أين أنا ؟ » وذلك لأن الضربة أحدثت خللاً فى نظام الخلايا الدماغية . ولو سحبنا كل المواد اليودية الموجودة فى ماء الشرب فإننا نحصل على أفراد معتوهين كسالى وخالين من كل طموح وحماس ، وذلك لأن نقص مادة اليود يؤثر فى الغدة الدرقية ، واذا تركنا الجراثيم تغزو الجسم الإنسانى فقد تتغير الشخصية لا وقتياً فقط بل تكون بصورة دائمة ويرجع سبب ذلك إلى أثر الجراثيم فى تركيب أنسجة الجسم

نرى مما ذكرنا أن الحالة العقلية تتوقف بنسبة كبيرة على الحالة الجثمانية . فلو خلقنا فى الطفل حالة جثمانية معينة سلك سلوكا يدل على البهجة والسرور واللطف مع الآخرين ، ولو وضعناه فى حالة جثمانية غيرها فإنه يتخذ خطة العبوس والاشمئزاز مما

ينفر الجميع من معاملته أو التقرب منه . فجميع الظواهر العقلية غير الطبيعية ترجع إلى عوامل جثمانية معينة اصبحت مفهومة معروفة كما نعرف أسباب الظواهر الطبيعية الاخرى . وسنشرح كل هذه الأمور على الصفحات التالية ، غير أننا سنبحث اولا معنى « الحالات الشاذة غير العادية » وثانيًا العوامل التى تسبب شذوذ الأفراد وكيفية إصلاح شذوذهم

الفرد الشاذ

نظراً لأنه لم يوجد بعد مقياس معتمد لتحديد الشذوذ وقياسه فإننا نعتمد فى ذلك على التقدير الشخصى . فاذا نظرنا إلى الأولاد ولاحظنا سلوكهم وتصرفهم حكمنا عليهم بأنهم إما عاديون أو شواذ تبعًا لمقدار توافقهم مع ما نكون قد قررنا أنه من الأحوال العادية قبل ذلك . وقد نتخذ من كلمة « عادى » معنى « مرغوب » حسبما ننظر إلى ذلك من وجهتنا الخاصة ، ولكن هذه الخطة فى القياس لا تترك غير حالات قليلة مما يوافق عليه الجميع ، وذلك لاختلاف الأهواء ، وتوجد ثلاث طرق يمكن الرجوع إليها لتقدير الحالات العادية أو الطبيعية (١) طريقة التقدير التى يقوم بها الفرد نفسه (٢) طريقة الإحصاءات (٣) الطريقة المادية . وقد ذكرنا هذه الطرق بترتيبها العكسى بالنسبة إلى قيمتها والاعتماد عليها . فالطريقة الأولى غير معتمدة لأن المقياس الذي يستعمل فى تقدير الحالة يختلف باختلاف الأفراد . وكلما حاول هؤلاء الافراد زيادة التدقيق فى الحكم لكى يكون التقدير مضبوطًا جاء تقدير كل منهم مختلفًا عن تقدير الآخرين . وتفضل الطريقة الثانية على الأولى بكثير إذ تتضمن هذه الطريقة مقارنة الفرد المعين بأفراد آخرين كما أنها تعطى تقديراً لا بأس به لأنها تتصف بالموضوعية وخلوها من العوامل الذاتية . فيمكننا بذلك تقدير الحالة الشاذة بالنسبة لمقدار شذوذها عن المتوسط العادى . أما الطريقة الثالثة فهى أفضل الطرق وأمثلها لتقدير الحالات الشاذة لأنها تعين الاضطرابات الجثمانية ثم تقرر أسبابها وعوامل نشوئها .

الطريقة الذاتية لتعيين الحالات الشاذة

إن النظام المتبع فى هذه الطريقة هو أن يتخذ الفرد نفسه نموذجًا فيحكم بالشذوذ على جميع الصفات التى تختلف عن صفاته ولا تتفق معها. ولهذا السبب نرى أن أغلب المجانين يحكمون على غيرهم بالجنون لأنهم يعتبرون أنفسهم عاديين وخالين من الشذوذ أصلا فيقيسون سلوك الغير بسلوكهم و يعتبرونهم من الشواذ. و بناء على هذه الطريقة نجد أن التقديرات الذاتية للحالات العادية تختلف باختلاف الذين يقومون بها واختلاف البيئة والعمر وغير ذلك من العوامل. لما زار جليفر بلاد الأقزام عدوه عملاقًا، ولما ذهب إلى بلاد العمالق نظروا اليه نظرتهم إلى قزم قصير. فاختلف الاقزام والعمالقة فى الحكم على جليفر مع أن قامته لم تتغير فى كلا البلدين لأن المقياس الذى قورن به فى الحالتين كان مختلفًا (راجع سياحات جليفر لمؤلفه جوناثان سوفت). ولقد كان من العادى فى العصور الوسطى أن يرى القديسون الرؤيا وأن يتحادثوا مع أصوات وهمية، أما اليوم فإن طبيب الأمراض العقلية يعتبر الظواهر التى من هذا النوع من أكبر دلائل الجنون والشذوذ العقلى. نعلم إذاً أن ما يظهر عاديًا فى عصر قد يعد شاذاً غير عادى فى عصر آخر. ومما سبق نرى أن تقدير الحالات العادية يرجع إلى الرأى الشخصى للفرد الذى يقوم بالتقدير، كما يتأثر بميول الجماعة التى يعيش معها هذا الفرد.

وهناك طريقة تختلف قليلا عن الطريقة الذاتية وهى أن نحكم على الحالة بتوافق الفرد مع الهيئة الاجتماعية التى يعيش فى وسطها. وتبعًا لهذه الطريقة نرى أن الأفراد الذين يحبهم رفاقهم والذين يتناسب تصرفهم مع تصرف الجماعة يعتبرون من العاديين، فى حين يعد الذين يكرههم رفاقهم والذين لا يتفق تصرفهم مع تصرف الجماعة غير عاديين أوشواذ. و إذا كانت هذه الطريقة لها بعض الميزات فى تقدير العاديين والشواذ فإن عليها بعض اعتراضات مهمة لأننا نحكم بها على أغلب الرجال العبقريين بأنهم شواذ، ولهذا نجد أن علماء العصور الوسطى الذين اتفق الناس على كراهيتهم وحكموا على أعمالهم بأنها ضارة بالجماعة، دفعوا أرواحهم ثمنًا لذلك. ولو

اتخذنا هـذا الأساس لتقدير اعمال الأفراد وسلوكهم لكان جميع شهداء العلم والسياسة والدين من الشواذ

الطريقة الاحصائية لتعيين الحالات الشاذة

أغلب الصفات التى تعتبر عوارض للاضطرابات العقليـة ما هي إلا حالات متطرفة للميول التى توجد بدرجة معتدلة فى الأفراد العاديين . فنجد أن الأغلبية الساحقة من الأفراد يتصفون بالصور المعتدلة من الصفات التى تشيع فى المجموع فى حين نجد أن هذه الصفات تظهر فى عدد صغير جداً من الأفراد ظهوراً ضئيلا ، كما أنها تظهر فى عدد صغير آخر بصورة متطرفة . وإذا رسمنا صفة من هذه الصفات فى منحنى بيانى للتوزيع الطبيعى وجدنا أن الفرد العادي يقع فى وسط المنحنى وأن الفرد الشاذ يقع فى أحد الطرفين .

ويمكننا التمثيل على هـذه الطريقة بالرجوع إلى الكفاية العقلية فى الذكاء . فالذكاء العادى هو الذى يدل عليـه الرقم ١٠٠ ، ويدل كل اختلاف مقداره ٣٠ رقماً تحت المائة على أن صاحبه فرد شاذ أو غير عادى فيحكم عليه بالضعف العقلى ، ونجد عادة فرداً واحداً من هذا النوع فى كل مائة من الأفراد . وكل شذوذ مقداره ٣٠ رقماً فوق المائة يضع صاحبه فى مرتبة الذكاء المفرط . ولا نعد مثل هذا الفرد شاذاً لأن الشذوذ فى هذا الاتجاه يعد عادة من الأمور المرغوب فيها .

الطريقة المادية لتعيين الحالات الشاذة

توجد عوامل كثيرة فى الاضطرابات العقليـة لا يمكن بحثها والكشف عنها ثم رصدها فى المنحنى البيانى للتوزيع الطبيعي إذ نجد هذه العوامل فى الحالات الشاذة فقط ولا يظهر لها أثر فى الحالات العادية . نجد مثلا أن جميع الناس ، العاديين منهم والشواذ ، متأثرون تأثراً ما بمفرزات الغدة الدرقية . ونجد أيضـاً أن الجميع حاصلون على الذكاء بدرجات متفاوتة ، إلا أن هناك بعض الامور التى لا يصـاب بها جميع الناس ، نذكر مثلا فالج الدماغ (نتيجة مرض الزهرى) وإدمان المخدرات

او غير ذلك . ففى هذه الأحوال يجب إجراء الاختبارات لتقدير وجود مثل هذه العوارض وقياس أثرها فى الحالة الشاذة . ويعد كل فرد مصاب بزهرى الدماغ أنه فى حالة شاذة لأنه يضيع عقله بعد الاصابة و إغارة المرض على جهازه العصبي . وكذلك الحال فى تعاطى المخدرات فإن أى مقدار منها له أثره فى تكييف الحالة الشاذة . ففى جميع هذه الحالات وما يشابهها يجب البحث عن العوامل فإذا وجـدت دل ذلك على أن الحالة غير عادية أو شاذة . ويتبين لنـا من الحالات المذكورة أن العوامل المؤدية إلى العوارض تأتى من الخارج لا مما يتعلق بوظائف الجسم نفسه ، فإن هذه العوامل تغير على الجسم وتعرقل سيره الطبيعي وتعطل الأعضاء عن أداء وظائفها العادية.

أسباب الحالات الشاذة وعلاجها

التدريب السيء سبب الحالات الشاذة

يجب أن يهتم المدرس بالحالات الشاذة التى تنشأ عن عادات قبيحة بسبب التدريب السيء لأن مثل هذه الحالات يمكن إصلاحها بالتدريب الحسن . نذكر مثلا العيوب اللسانية ، والخطأ اللغوى ، والميل المشاغبة ، والمكايدة ، والعادات الصبيانية ، واللجوء الى الثورة العصبية اذا لم ينل الفرد ما يريد . والأفضل عدم وضع مثل هذه الخصال ضمن الحـالات الشاذة لأنها لاتخرج عن كونها عادات سيئة ناتجة عن التدريب السيء ، وفى أغلب الأحيان يكون التدريب الردىء فى التربية البيتية

أسباب جثمانية للحالات الشاذة

نشرح فى هذا القسم الاضطرابات العقلية الناشئة عن عوامل جثمانية وهى غير العادات السيئة التى ذكرناها . نحن نعلم أنه اذا اعترى احـدى الصمامات الكهربية فى السيارة عطب فإنها لن تسير سيراً طبيعياً ، وكذلك الجسم اذا أعترى الغدة الدرقية عطب لم ينتظم سير الآلة البشرية . وكما تعطل الأسـلاك الكهربية المتلامسة نظام الاضاءة كذلك فإن اصابة الدماغ تعرقل التفكير . وكما أن الماء اذا أضيف الى بنزين

السيارة يقلل من قوة سيرها كذلك الكحول فإنه يفقد العقل قوته المنطقية وتوازنه . وكما أن امتن الآلات تبلى مع الزمن كذلك أذكى العقول فإنه يفقد حدته مع تقدم السن.

واذا حاولنا اصلاح شخصياتنا المنحلة وجب علينا أن نبدأ بطريقة نظامية معقولة . وبما أننا نعلم أن الشخصية تتوقف على الآلة الجثمانية وتأديتها لوظائفها فإن الشخصيات الشاذة توجد فى الأجسام الشاذة المتعطلة عن العمل . واذا قارنا مثلا النظام العادى الذى يتبع فى اصلاح سيارة معطلة بالنظام الواجب اتباعه فى اصلاح النظام العقلى والجهاز العصبى وجدنا تشابهًا بين النظامين. تؤخذ السيارة أولاً الى جاراج حيث يبدأ الميكانيكى بالكشف عن جميع أجزائها بنظام تام محاولا معرفة السبب الذى أدى الى سلوك السيارة الشاذ . ولا يسمح الخبير لنفسه أثناء كشفه على السيارة أن يتأثر بآراء سابقة فى الموضوع ، فهو يعمل واثق أنه سيصل الى نتائج مادية مما يمكن تجربته وقياسه . وعلى عكس ذلك يكون الحال مع الخبير الموكول اليه اصلاح الشخصية اذا بدأ العمل وهو متأثر بالآراء السابقة القائلة بأن الشخصية شىء غير متعلق بالجسم وأنها أثيرية التكوين ، غامضة التركيب لا يمكن تغييرها أو تحسينها بتحسين العوامل الجسمية . وقد يتوهم أيضًا أنه لا يمكن اصلاح الشخصية الا بوساطة الصلوات والرقى والأحجبة وغير ذلك من المزاعم الباطلة

اضطرابات الغدد الصماء

نبحث الآن بعض الحالات الخاصة فى الاضطرابات العقلية الناتجة عن عوامل جثمانية محدودة مما يمكن إصلاحه ونبدأ أولاً ببعض الاضطرابات الغدية .

١ — الغدة الدرقية ذات الافراز الناقص

يولد بعض الأطفال أحيانًا وهم مصابون بداء يعطل نموهم العقلى والجثمانى (cretinism) ويرجع سببه إلى نقص طبيعى فى إفرازات الغدة الدرقية ، ويولد الطفل في بعض الأحيان بغدة درقية سليمة إلا أن التهابًا قد يصيب الزور فيسبب عطب الغدة الدرقية ومن ثم يعطل نموّ الطفل . وقد يعيش المصابون بهذا العطب إلى سن

البلوغ . فيبقون قصار القامة ومعتوهين أو منحطين عقلياً . ثم إنهم يخلون من الطموح والانفعالات النفسية ولا يهتمون بلذة التحصيل . كما أن مباهج الحياة وأحزانها لديهم سيان . ولكن إذا غذينا الأفراد المصابين بنقص النمو العقلي والجثماني بخلاصة الغدة الدرقية الحيوانية يبدأ نموهم الجثماني والعقلي ، ويتقدمون فى الذكاء ، ويظهرون عوارض الانفعال العادية فى البشر. ويستطيع أن يناضل الأولاد الآخرين على أساس أفضل من سابقه . والعلاج بسيط جداً ورخيص ومن الإجرام أن نطالب ولداً فى غدته الدرقية نقص بأن يصل إلى مستوى الأولاد الذين يتمتعون بغدد درقية عادية ، فى حين أن إعطاءه حبتين أو ثلاثاً من خلاصة الغدة الدرقية يومياً قد يمكنه من النضال بمجهود أقل . والشذوذ الناتج عن النقص فى الغدة الدرقية على درجات متفاوتة لأن الأولاد الذين تظهر فيهم أعراض هذا النقص يتراوح ذكاؤهم بين العته والبلادة العقلية . وكثير من الأولاد الذين يكافحون وهم فى حالة نقص التكوين ولا يحصلون على غير الدرجات المتوسطة والضعيفة فى أعمالهم المدرسية قد يتمكنون من نيل الدرجات الممتازة والحسنة بنصف الوقت الذى يصرفونه فى كفاحهم لو اعتنى بهم العناية الكافية وأعطوا المقدار الذى يحتاجون اليه من خلاصة الغدة الدرقية .

٢ — الغدة الدرقية ذات الافراز المفرط

فى بعض الأحيان قد تنشط الغدة الدرقية فتفرز مقادير تزيد طاقتين أو ثلاث طاقات عن المقدار اللازم . فيؤدى ذلك أيضاً إلى حالة غير عادية فى الولد فتصير حالته غير هادئة فيكون سريع التأثر ويقلق بالليل ويقل وزنه وتعتريه رعشة فى يديه ويظهر الخوف فى عينيه . فإذا قطع الجراح جزءاً من غدته الدرقية وقلل إفرازها إلى الحد الطبيعى أو إذا أعطى الولد المواد المضادة لعملها مثل المستحضرات اليودية وخلاصة الغدة النخامية تحسنت حالة الولد وا كتسب شخصية جذابة ، وأمكنه الانتظام بالمدرسة العادية

٣ — الغدة النخامية

الغدة النخامية إذا لم تؤد وظيفتها كما يجب سببت اضطرابات كالتى تظهر عوارضها فى تلاميذ المدارس .

تنشأ حالة مرضية بسبب نقص في إفراز فلقتي الغدة النخامية وتظهر أعراضها في الطفولة ومراحل البلوغ الأولية كما أنها تزيد في الذكور عن الأناث . والطفل المصاب بهذا الداء تظهر عليه عوارض السمنة والانوثة ولا يمكن أن يفهم الناس حالتـه . فإنه يكتسب نوعاً من الشخصية مما تتمناه الأمهات غير أنهن أيضاً يحترن في فهمـه . ومعالجة الإخصائيين لهذه الحالات تفيد جداً إذ يمكن إنقـاص الشحم وزيادة طول القامة ورفع مستوى الذكاء . ويقتصر العلاج في هـذه الحالات على حقن المريض مرتين في الأسبوع بخلاصة الغدة النخامية المستخلصة من الحيوانات .

وكثيراً ما نشاهد في أولاد المدارس حالات من الضعف العصـبي . والعامل الأساسي لهذه الحالة هو نقص القوة ، إذ يلاحظ في المصـابين أنهم يتعبون جثمانياً وعقلياً لأقل مجهود . أما من الجهة العقلية فيلاحظ أن الطفل لا يستطيع تركيز ذهنه مدة طويلة ولا يمكنه أداء أي عمل مجهد على الإطلاق . وعلى ذلك يتخذ خطة اليأس وخيبة الأمل وفقدان الأمل . كما يشـاهد عليه فقدان الشهية للأكل وحالة التعب المستمر حتى إن المصاب يستيقظ في الصباح تعباً كأنه لم ينم على الإطلاق . على أن جميع هذه الأحوال يمكن تحسينها بأخذ حقنتين في الأسبوع من خلاصة الفلقة الأمامية من الغدة الدرقية .

٤ — الغدة الشبيهة بالدرقية

إن استعمال إفرازات الغـدة الشبيهة بالدرقية لمعالجـة أولاد المدارس ما زال أمراً في مستهل أيامه .

ويدل البحث على أن الولد المصاب بعجز في إفرازات الغدة الشبيهة بالدرقية يعاني أعراضاً منها سرعة التأثر كالتي تظهر بسبب إفراط إفرازات الغـدة الدرقية ، والتهيج العصبي المتطرف مما يؤدي إلى لعبه برباط الرقبة أو قضم الاظافر واستعداده لإتيان نوبات عصبية . وهو غالباً في حالة الكآبة وعدم الاختلاط الاجتماعي ، غير أنه كثيراً ما يتمارك . واذا ما حللنا الدم وجدناه ناقصاً في الكلسيوم . وتعالج هذه الحالة بنجاح بخلاصة الغدة الشبيهة بالدرقية وبعض المواد العضوية المحتوية على الكلسيوم .

٥ — الغدد الجنسية

يمكن مشاهدة أهمية الغدد الجنسية فى تكوين الشخصية بملاحظة حيوانات المزارع. فإذا استؤصلت الغدد الجنسية من الثور فقد طموحه فى نضاله وصار هادئاً صبوراً.

ونلاحظ أثناء مرحلة البلوغ اضطرابات كثيرة فى أولاد المدارس بسبب إفرازات غير طبيعية ناتجة عن الغدد الجنسية، كما أن الفتاة فى دور البلوغ تتأثر وتبكي لأقل سبب إبان فترة الحيض، أو تعانى كثيراً من التشنج وعسر الحيض مما يؤدى الى ضرورة غيابها يوماً أو أكثر عن المدرسة كل شهر، والأرجح أنها تعانى نقصاً فى إفرازات الرحم والمبيض. فلو عملنا على إعطائها خلاصة الغدة المناسبة لأمكن إصلاح حالتها وتحسين عملها المدرسى.

الأمراض المعدية

لقد لاحظ الإنسان منذ قرون بعيدة الاضطرابات العقلية التى تظهر فى حالات الهذيان التى ترافق بعض الأمراض المعدية مثل هذيان حمى التيفوئيد. ولا تفرز الجراثيم السموم التى تزعج العمليات العقلية فقط بل تسبب التهابات فى الدماغ وغشائه مما يقتل بعض الخلايا العصبية نفسها

الزهرى

يعطينا الزهرى أفضل الأمثلة فى أثر الأمراض العفنة على الحالة العقلية. ومع أن هذه الحالة لا تظهر فى الأطفال إلا فى حالات الزهرى الوراثى فإنه يمكن بحثها لتبين لنا نقطة مهمة فى هذا البحث. تدل الاحصاءات على أن ١٢ ٪ من مرضى مستشفيات الأمراض العقلية يعانون الجنون الناشىء عن الشلل الدماغى الناتج عن الزهرى. وقبل كشف سر هذه الحالات ومعرفة أنه مرض الزهرى كان الأطباء يرجعونها إلى الانفعالات النفسية مثل الفشل فى العمل والتجارة أو موت الأقارب أو خيبة الأمل فى أمور غرامية أو حماس دينى وغير ذلك. وكان العلاج وقتئذ يعتمد على الطرق النفسية مما أدى إلى فشلها التام وتطور حالة المرض من سيء

إلى أسوأ حتى إن المرضى كانوا يموتون بعد أربع أو خمس سنوات . غير أنه منذ نحو ثلاثين سنة ظهر أن الجراثيم التى تسبب الزهرى فى الجسم هى التى تسبب الشلل الدماغى وقد تبين أن هذه الجراثيم تؤثر فى الدماغ بإتلاف المادة الدماغية والأغشية التى تحيط بها . وظهر بعد ذلك أنه يمكن الكشف عن هذا المرض بتحليل بعض السوائل المستخرجة من العمود الفقرى . ووجد من نحو خمس عشرة سنة أنه يمكن علاج هذا المرض بحمى الملاريا .

عفونة المراكز الرئيسية

توجد حالات كثيرة فى الأطفال مسببة عن فساد فى المراكز الرئيسية مثل الاسنان واللوز الحلقية وتجاويف الأنف وغيرها . كما أن بعض اضطرابات الغدد قد يرجع سببها المباشر إلى بعض الحالات العفنة المستعصية . والدم الذى يجرى فى الدماغ يمر قبل ذلك فى هذه المراكز الفاسدة فينقل السموم إلى المخ ويحدث الضرر المعهود . كما أننا نجد كثيراً من أمراض الكليتين والقلب والأعصاب يرجع سببها إلى هذا الفساد أيضاً . وإذا وجدنا أن اللوز الفاسدة والأسنان الفاسدة تؤدى الى التهاب فى مفاصل الركب أو فى الكبد فلماذا لانفرض أيضاً أنها تحدث اضطراباً مماثلا فى الدماغ أو فى أى جزء من الجهاز العصبي ؟ ولذا يحتم معالجة جميع مواطن الفساد وإزالتها خصوصاً فى الأطفال الذين يحتاجون إلى العناية الخاصة .

فقر الدم

تتوقف كفاية الانسان العقلية والجثمانية على مقدرة الدم على نقل الاكسجين . ولذا نجد أن الأطفال المصابين بفقر الدم تنقصهم القدرة العملية كما أنهم يتعرضون دائماً للبرد وغيره من الأمراض المعدية فيتغيبون أياماً كثيرة عن المدرسة ويعالج الآن فقر الدم بخلاصة الكبد ويأتى العلاج بنجاح كبير .